من التاريخ والأدب

الدكتور إبراهيم السامرائي

جامعة صنعاء

قال النقاد الأقدمون إن الشعر ديوان العرب، والكلمة موجزة، وهي على إيجازها حافلة بالمعاني الكثيرة. ولعل من هذه الفوائد ما كان للشعر من مكانة في الحدث التاريخي، فليس الشعر خبراً تاريخياً ولكنه يعين المؤرخ في تثبيت الخبر وتوثيقه. ومن أجل ذلك حفلت مطولات التاريخ بالشعر الذي جعله المؤرخ القديم رفداً للمادة التاريخية.

وربما كان الشعر القديم مؤدياً الغرض «الإعلامي» إن جاز استعمال هذا المصطلح.

وكنت قد استظهرت طائفة من هذه النصوص، فكان شيء منها قد حفظته عن ظهر غيب أيام الطلب وهو يشير إما إلى حادثة تاريخية وإما إلى وصف لحال من الأحوال الاجتماعية. وقد يكون لي أن أقول: إن النص الشعري أبلغ وقعاً وأكثر تصويراً من الخبر التاريخي. وليس من شك أن قصيدة ابن الرومي في نكبة البصرة على أيدي الزنج مثلاً أبلغ كثيراً من جملة الأخبار التاريخية التي وردت في تاريخ الطبري مما يتصل بالزنج وعبثهم. وقد يكون مثل هذا ما نفيده من الأثر من قراءة قصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

وأبدأ هذه الوقفات بوقفة قصيرة أقف فيها على شيء من شعر زهير بن أبي سلمى أتخذه نموذجاً للأدب الجاهلي لأقول: إن القصيدة العربية طوال العصور قد أحلّت المواقف الاجتماعية وما ترمي إليه محلاً واضحاً. ومن هنا كانت القصيدة أداة اجتماعية تؤدي ما نحن ندعوه اليوم «الغرض الإعلامي». وقد يكون لي أن أستميح القارىء عذراً في استعمالي مصطلح «السياسة» في الكلام على أحداث ما قبل الإسلام، مما يدخل في الخصومات التي كانت تحدث بين القبائل. وإني لأقرّب بين النزاعات القبائلية وبين النزاعات التي حدثت بين القبائل في العصور الإسلامية، وما كان من فعل «السلطات» الحاكمة في إثارتها.

وقد كان الشعرالجاهلي مادة مهمة في الإعراب عما كان يحدث من تلك الخصومات،

وإننا لنقرأ في «معلقة» زهير قوله:

سَعى ساعيا غيظ ابن مرّة بعد ما تَبَزّل ما بين العشيرة بالدّمِ

و«الساعيان»: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وقيل خارجة بن سنان[1]، و«غيظ ابن مرة» حي من غطفان ثم من بني ذبيان، وكان لهما في الصلح سعي محمود فقد تحملا الديّات «بعد ما تبزّل ما بين العشيرة بالدم» ونمضي مع الشاعر فنقرأ قوله في الإشادة بما كان من الساعيين المشار إليهما في إصلاح ما جرى بين عبس وذبيان:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريشٍ وجُرْهمِ
يميناً لنعم السيّدان وجدتما على كل حال من سَحيلٍ ومُبرَمِ(٢)

ويمضي في التنويه بصنيعهما فيقول:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانَوا ودقّوا بينهم عطر مَنشِمِ(٣)

«وهو بهذا يشير إلى الشر العظيم الذي وقع بين القبيلتين، وليس من حاجة إلى أن أشير إلى ما قيل في عطر منشم».

ويمضي الشاعر فيقول:

وقد قلتُما إنْ ندركِ السلمَ واسعاً بمالٍ ومعروف من الأمر نَسلَمِ
فمَن مُبلغ الأحلاف عنّي رسالةً وذبيانَ هل أقسمتُمُ كلَّ مُقسَمِ
فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في نفوسكم ليخفى، ومهما يكتَم اللهُ يُعلَمِ

---

(١) وقيل: يزيد بن خارجة، انظر: المعاني الكبير ص٨٨.

(٢) وقوله: «سحيل ومبرم»، «السحيل» الخيط المفرد، و«المبرَم» هو المفتول، وفي العبارة «كناية» عن شدة الأمر وسهولته.

(٣) و«منشم» هذه زعموا أنها امرأة عطّارة من خزاعة فتحالف قوم، فادخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا، وقد ضرب بها الشاعر المثل، أي صار هؤلاء في شدة الأمر بمنزلة أولئك، وقيل: هي امرأة من خزاعة كانت تبيع عطراً فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم فتشاءموا بها، وقيل في ذلك أقوال أخرى، انظر: شعر زهير بن أبي سلمى (صنعة الأعلم الشنتمري) بيروت ١٩٨٠ ص ١٥ ـ ١٦.

وهو هنا يشير إلى «الأحلاف» وهم أسد وغطفان وطيىء ويسألهم إن كانوا قد حلفوا لَيفعَلُنَّ ما لا ينبغي أن يفعلوه، ثم هو ينصحهم ألا يضمروا خلاف ما يظهرون، ذلك أن الله يعلم السرّ فلا تكتموه، أي تكتموا الصلح في أنفسكم، ثم يعود إلى الحرب وما يتخلّلها وما يعقبها من شرّ وأذى فيقول:

وما الحرب إلاّ ما علمتُمْ وذُقتُمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرَمِ

وهو يذكّرهم بما يعلمون عن الحرب، وليس ذاك بالحديث الذي يُرمى فيه بالظنون، فقد علمتموها وجرّبتموها فان لم تعملوا للصلح لم تحمدوا أمرها.

ثم يمضي في بيان ويلات الحرب...

أقول: هذه القصيدة بما اشتملت عليه من هذه الأبيات وغيرها تؤلف مادة إنسانية تتصل بإنسانية العربي القديم وما كان من أمره في سلوكه وممارساته، وهنا يقف الشاعر رسول خير وسلام ومحبة. وهذه الأبيات قد تفوق سائر ما قيل في هذه الأخبار التأريخية القديمة، وهي من هنا أفصح في الدلالة من الخبر التاريخي، وإن لم تكن مادة تاريخية منقطعة إلى التاريخ.

ومن مشاهد العرب في الجاهلية ما يدعى بـ «أيام العرب» التي كان فيها الشعراء أعلاماً بارزة، فقد سجلوا ما كان في هذه الأيام من قتال، وما كان فيها من أحداث، ومن هذا ما نقرأ من قول قيس بن الخطيم في يوم بعاث للخزرج على الأوس، وكلاهما من قحطان، في يوم حاطب أيضاً:

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب ... لعمرة وحشاً غير موقف راكب

إلى أن يقول:

دعوت بني عوفٍ لحقنِ دمائهم ... فلما أبوا سامحت في حرب حاطب
وكنت امرءاً لا أبعث الحرب ظالماً ... فلما أبوا أشعلتها كل جانب

وإلى أن يقول:

ويـوم بُعـاثٍ أسلمتْنـا سيـوفُنـا ... إلى نَسب في جسـم غسّـان ثـاقب
فهـلا لـدى الحرب العـوان صبرتُمُ ... لـوقعتنـا واليـأس صعب المراكب
فأنبـا إلى أبنـائنـا ونسـائنـا ... ومـا مَن تـركنا من بُعـاثٍ بـآئبِ(١)

فأجابه عبد الله بن رواحة بقوله:

إذا عُيِّرتْ أحسـابُ قـوم وجـدتُنـا ... ذوي نـائلٍ فيهـا كـرام المضـاربِ
نُحـامـي على أحسـابنـا بتـلادنـا ... لمفتقـر أو سـائل الحق راغب
بخُرسٍ تـرى الماذيَ فوق جلـودهم ... وبيضـاً نِقاءً مثل لـون الكـواكب(٢)

ومن هذا ما نقرأه من قول عبد يغوث الحارثي في يوم الكُلاب الثاني لتميم على مذحج، وقد كان عبد يغوث أسيراً لدى تميم:

ألا لا تلـومـاني كفى اللـوم مـا بيـا ... فما لكما في اللـوم خير ولا ليـا
جـزى الله قـومي بالكُـلاب ملامـةً ... صريحهمُ والآخـرين المواليـا
ولـو شئـتُ نجّتني من الخيل نَهدةٌ ... تـرى خلفهـا الحُوَّ الجيـاد تـواليـا
ولكنّنـي أحمي دمـاءَ أبيكُـمُ ... وكـان الـرمـاحُ يختطفن المحـاميـا
أقـول وقـد شـدّوا لسـاني بِنِسْعـةٍ ... أمعشَرَ تيمٍ أطلقـوا لي لسـانيـا(٣)

وهذه الأبيات تشير إلى أن الشـاعر قد أنحى بـاللائمة على قومـه حين فرّوا، وقد أسر وهو يدافع عنهم.

***

ومن هذه المواقف ما كـان من أيام العدنانيين فيما بينهم كما كـان في حرب البسوس

---

(١) الديوان (ط أوربا) ص١٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٦

(٣) انظر: نقائض جرير والفرزدق ص٣٧، الكامل في التاريخ ١/ ٢٧٩، العقد الفريد ٣/ ٣٥٤

بين بكر وتغلب من ربيعة، وخبرها معروف في القصص والشعر[1]، ونقرأ من ذلك قول الفِند الزِمّاني:

صفحنا عن بني ذُهلٍ ... وقلنا: القومُ إخوانُ
عسى الأيامَ أن يَرجعنَ قوماً ... كالذي كانوا
فلما صرّح الشرّ فأمسى ... وهو عُريانُ
ولم يبقَ سوى العدوان، ... دِنّاهُمْ كما دانوا[2]

وهذه «الحرب» كانت مناسبة انطلق فيها الشعراء حتى قيل: إن أول ما طوّل الشعر إنما كان في أحداثها، فقد رثى مهلهل أخاه كليباً بقصيدة بلغت ثلاثين بيتاً.

وقد سعى للصلح بين القبيلتين عمرو بن هند ملك الحيرة، وقد نشبت بينهما ملاحاة في مجلس عمرو هذا. وكان الحارث بن حلزة البكري قد أنشد مطولته المشهورة، كما أنشد عمرو بن كلثوم التغلبي قصيدته المشهورة، والقبيلتان من قيس، وكانت بينهما مشاركات واتصل رجال كل منهما بملك الحيرة، وإننا لنجد في قصيدة الحارث محاكمة ونقاشاً وجدلاً، يدور كل ذلك في فخره، ويفخر عمرو بن كلثوم بمجد قبيلته ومواقفها.

ومن هذه المشاهد «يوم اللوى» لغطفان على هوازن، وكلاهما من قيس، وقد رثى فيها دريد بن الصمّة أخاه عبد الله بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَرَثَّ جديدُ الحبل من أم مَعبدِ ... بعاقبةٍ وأخلفت كل موعدِ

وفيها يقول:

أمرتُهُمْ أمري بمُنعرَجِ اللِّوَى ... فلم يستبينوا النصح إلاّ ضُحى الغدِ
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم وأنني غير مهتدِ
وهل أنا إلاّ من غزيّة إن غوَتْ ... غَوَيت وإنْ ترشُدْ غزية أرشُدِ
دعاني أخي والخيل بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بقُعدَدِ[3]

---

(١) انظر: النقائض ص٧٧٣، الأغاني ٥/ ٣٢، الكامل في التاريخ ١/ ٢١٣، العقد الفريد ٣/ ٣٤٨.

(٢) انظر: شرح الحماسة للتبريزي ١/ ٢١.

(٣) انظر: الأغاني ـ دار الكتب ١٠/ ٦، العقد الفريد ٣/ ٥٤.

وقال النابغة في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

إذا ما غزا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائب طيرٍ تهتدي بعصائبِ
ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم ... بِهنَّ فلول من قراع الكتائب
تُوَرِّثْنَ من أزمانِ يوم حليمةٍ ... إلى اليوم قد جُرِّبنَ كل التجارب[1]

ويعتذر النابغة إلى النعمان فيقول:

أتاني أبيتَ اللعن أنك لُمتَني ... وتلك الّتي تستكُّ منها المسامعُ
مقالةَ أن قد قلتُ سوف أنالُه ... وذلك من تلقاء مثلك رائعُ
لعَمري وما عُمْري عليَّ بهيّنٍ ... لقد نطقت بُطْلاً عليَّ الأقارعُ[2]

وفي ذلك يقول أيضاً:

أُنبِئتُ أنَّ أبا قابوسَ أوعَدَني ... ولا قرارَ على زَأْرٍ من الأسَدِ
مهلاً فداءً لكَ الأقوامُ كُلُّهُمُ ... وما أُثمِّر من مالٍ ومن وَلَدِ[3]

وقد ظهر النابغة، شاعر المناذرة على حسّان شاعر الغساسنة، مع أن النابغة قد مدح الغساسنة وأشار إلى يوم حليمة، وهو للحارث بن جبلة الغساني ملك الشام على المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة، وله فيهم قصائد أخرى.

وقد حمل النعمان بن المنذر مديح الشاعر للغساسنة على أنه ولاء سياسي في حين ذهب النابغة إلى شيء آخر وراح يفسره على أنه شكر على أيادٍ له عليه، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء.

***

ولما غزا النعمان بن الحارث الغساني بني حُنّ، وهم من عذرة، التحم بنو حُنّ وهم

---

(١) ديوان النابغة ص٤٦.

(٢) الديوان ص ٦٥

(٣) الديوان ص ٨٧

قوم النابغة مع الغسانيين فهزموهم وحازوا على ما كان بأيديهم من غنائم لهم، فقال النابغة في هذه الوقعة:

لقد قلتُ للنعمان يوم لقيته ... يُريدُ بني حُنٍّ ببرقة صادرِ
تجنَّب بني حُنٍّ فإنّ لقاءهم ... كريهٌ وإنْ لم تَلْقَ إلا بصابرِ
عظام اللهى أولاد عذرة إنهم ... لهاميمُ يستلهونها بالخناجرِ
هُمُ منعوا وادي القرى عن عدوّهم ... بجمعٍ مبيرٍ للعدوّ المكاثرِ[1]

وقد افتخر الأعشى بشفاعة رجل من قيس بن ثعلبة في سبي بكر بن وائل في يوم أوارة الأول، وفي يوم أوارة الثاني لما بغى عمرو بن هند على طيّء بإيعاز زرارة بن عُدُس، قال قيس بن جروة الطائي قصيدة منها:

فهبْكَ ابنَ هندٍ لم تعقكَ ملامةٌ ... وما المرءُ إلا عهدُه وموائقُهْ
وكنا أناساً خافضين بنعمةٍ ... يسيل بها تَلْعُ الملا وأبارقُهْ
فأقسمتُ جَهداً بالمنازل من مِنىً ... وما خَبَّ في بطحائهنّ درادقُهْ
لئن لم تغيّر بعضَ ما قد فعلتُمُ ... لأنتحينَ العظمَ ذو أنا عارقُهْ

فسُمّي يومئذ «عارقاً». فقال عمرو بن تُرمُلة بن شعاث الطائي - وهو ابن عم قيس ابن جروة - أيهجوني ابن عمك ويتوعّدني، فقال: لا، واللّهِ ما هجاك ولكنه قال:

والله لو كان ابنُ جفنة جارَكم ... ما إن كساكم غُصّةً وهوانا
وسلاسلاً يبرقنَ في أعناقكم ... وإذاً لقطّعَ تلكم الأقرانا
ولكان عادته على جيرانه ... ذهباً ورَيْطاً رادغاً وجفانا

إلى آخر الخبر، وهو مفاضلة بين المناذرة والغساسنة[2].

وفي أعقاب يوم أوارة الثاني قال لقيط بن زرارة يعيّر بني مالك بن حنظلة بإحراق

(١) الديوان، ص ١٢٧

(٢) النقائض ص٦٥٢، ١٠٨١

عمرو إياهم، ويدعوهم إلى الثورة، وينعى على عمرو سياسته:

فـأبلـغْ لـديك بنـي مـالـكٍ مُغَلْغلـةً وسَراةَ الـربـابِ
فـإنّ امـرءاً أنتُـمُ حـولـه تحطّـون قبّتـه بـالقبـابِ
يُـهين سَراتَكُـمُ عـامـداً ويقتلكـم مثـل قتـل الكـلابِ
فلـو كنتُـمُ إبـلاً أملحـت لقـد نَـزَعـت للميـاه العِـذابِ
ولكنّكـم غَنَـم تصطفـى ويُترَكُ سـائرهـا للـذئابِ
لعمـر أبيـك أبـى الخير مـا أردتَ بقتلهـم مـن صـوابِ
ولا نعمـةٍ، إن خير الملـوك أفضلهـم في الـرقـابِ[1]

وهذا يظهرغدر الملك بقبيلته، وانتقاض القبيلة عليه، وتفضيل غيره عليه في معاملته لرعيته، ثم ظلم الملك لتميم، ودعوة شاعر منهم إلى نبذ الملك والقيام عليه.

* * *

واقرأ قول الأعشى يمدح «هوذة»:

سـائل تميماً بـه أيـام «صفقتهـم» لما رآهـم أسـارى كلهـم ضَرَعـا
وسـط المشقَّـر في غبراء مظلمـةٍ لا يستطيعـون بعـد الشرّ منتفعـا
فقـال للمَلْـكِ أطلـقْ منهـمُ مئـةً رَسْلاً مـن القوم مخفوضاً ومـا رَفَعا[2]

ونأتي إلى «يـوم الصفقة» ونعرف أنـه كان للفـرس على تميم، وذلك أن تميماً كـانت تحرس تجارة كسرى أنـو شروان في طريقهـا إلى اليمـن، فـأراد هوذة بـن علي الحنفـي خفارتها وأخذ جُعل تميـم، ولكن تميماً نهبت التجارة وأسرت هوذة، ثم فـدى نفسه، ثم احتال مع كسرى حتى استقـدموا بني تميم إلى «المشقّر» وهو حصن يُدخـل فيه الرجل فيُقتَل، حتى سبقـه للأمر رجل، وقطـع سلسلة الحصن وكشف الأمـر فثارت تميم، وفي ذلك قال الأعشى يمدح هوذة[3].

(١) النقائض ص٦٥٢، ١٠٨١

(٢) الديوان (ط أوروبا) ص٨٧

(٣) ابن الأثير، الكامل ١/ ٢٧٥

وافتخر الأعشى فقال:

أمـــا تميم فقـــد ذاقـت عـــداوتَنـــا ... وقيس عيـــلان مسَّ الخزيُ والأسفُ
وجنـد كسرى غـــداة الحنـو صبَّحهم ... منّا غطـاريف ترجـو الموت وانصرفوا
لـــو أن كل مَعَـــدٍّ كـــان شـــاركنـــا ... في يـوم ذي قـارَ مـا أخطـاهُمُ الشرفُ

و«يوم ذي قار» هذا مشهور، وقد كـان لبكرٍ على الفرس، والكلام فيه كثير معروف، وللشعر فيه مكان، وهو الذي قال فيـه النبي ـ ﷺ ـ: اليوم أول يومٍ انتصف فيه العرب من العجم، وبي نُصروا».

وقال العُدَيل العجلي في ذلك:

مـا أوقـد النـاس من نـارٍ لمكرمـةٍ ... إلا اصطلينـا وكنـا مـوقـدي النـار
ومـا يعـدّون من يـوم سمعتَ بـه ... للنـاس أفضلَ من يـومٍ بـذي قـار
جئنـا بأسـلابهم والخيل عـابسـةٌ ... لما استلبنـا لكسرى كلَّ إسـوار[1]

وقد يقف الشاعر القديم من قبيلته موقف النـاقد، ومن ذلك ما نفيده من قول قريط ابن أنيف:

لـو كنت مـن مـازن لم تستبح إبلي ... بنـو اللقيطـة من ذُهْل بن شيبـانـا
إذن لقـام بنصري مشعـرٌ خُشُنٌ ... عنـد الحفيظـة إن ذو لـوثـةٍ لانـا
قـوم إذا الشرُّ أبـدى نـاجـذَيـهِ لهم ... طـاروا إليـه زرافـاتٍ ووحـدانـا
لا يسألـون أخـاهم حين ينـدبهم ... في النـائبـات على مـا قال بـرهـانـا
لكن قـومي وإن كـانـوا ذوي عـددٍ ... ليسوا من الشرّ في شيءٍ وإنْ هـانا[2]

ولعل ممـا يندرج في هـذا مـوقف الصعـاليك من أهلهم وقومهـم، ومن هذا خطـاب الشنفرى في قوله:

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٨٢

(٢) الحماسة (التبريزي) ١/ ٨

أقيمـوا بنـي أمّـي صـدور مطيّكـم فـإني إلى قـوم سـواكـم لأميـل
فقـد حُمّت الحاجـات واللّيـل مقمِـرٌ وَشُـدَّت لِطيّـاتٍ مَطـايـا وأرْحُـلُ

وهو حين يصف مايعانيه في عيشه وما يلقاه مـن هول يشعر القارىء بوحدته، وأنه لم ينل من أهله وقومه ما يعينه على الحياة، فهو يقول:

أديـم مطـال الجوع حتـى أميتـه وأضرب عنه الـذكر صفحـاً فأذهـل
واستـفُّ ترب الأرض كيـلا يُرى لـه عليَّ مـن الطـول امـرؤ متطـوّل[1]

ولنـا أن نقول هـذا فيما عـاناه الصعـاليـك الآخرون كـلٌّ على طـريقته في الحيـاة، ولنستمع إلى معاناة عروة بن الورد في قوله:

لحا اللـه صعلـوكـاً إذا جَـنّ ليلُـه مصـافي المُشـاشِ آلفـا كـل مجزَرِ
يعُـدّ الغنـى مـن دهـره كـل ليلـةٍ أصـاب قـراهـا مـن صـديـقٍ مُيَسَّرِ
ينـام عشـاءً ثـم يُصبـح نـاعسـاً يحُـتُّ الحصـى عـن جنبـه المتعفّـرِ
يُعين نسـاءَ الحيِّ مـا يستَعِنَّـه ويمسي طليحاً كـالبعير المحسَّـرِ[2]

ومن شعر الفخر قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

فـآبـوا بـالنِهـاب وبـالسبـايـا وأبنـا بـالملـوك مصفّـديـنـا[3]

وإلى هذا يشير امرؤ القيس:

ملـوكـاً مـن بني حجـر بـن عمـرو يسـاقـون العشيّـة يقتلـونـا
فلـو في يـوم معـركـة أصيبـوا ولكـنْ في ديـار بنـي مَـرينـا
ولم تُغسَـل جماجمُهـم بغُسـل ولكـنْ في الـدمـاء مُـرمَّلينـا
تظـلّ الطير عـاكفـةً عليهـم وتنتـزع الحواجـبَ والعيـونـا[4]

---

(١) الديوان (في الطرائف الادبية صنعة الميمني)
(٢) الديوان (ط ـ صادر) ص٤٣
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني (ط صادر) ص١٣١
(٤) الديوان ص ٢٠٠

وخبر هذه الأبيات أن كندة قد قام ملكها أول الأمر برعاية تابعة اليمن، إذ ملكوا حُجر بن عمرو آكل المرار على بكر بن وائل، فنزل ببطن عاقل، وأغار ببكر، فانتزع ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر، فاتصل ملوكها بالفرس والروم والمناذرة والغساسنة وبعض القبائل البدوية، وكان لهم أيام وشعر إلى آخر أيامهم وزوال ملكهم. ومن ذلك ما كان من امتلاك الحارث بن عمرو الكندي الحيرة مكان المنذر بن ماء السماء أيام قباذ كسرى فارس، ولكن كسرى أنو شروان أعاد المنذر في مكانه وهرب الحارث، ولكنّ بني تغلب وغيرهم انتهبوا ماله، وأخذوا ثمانية وأربعين من بني آكل المرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث، فقتلهم المنذر في ديار بني مرينا، وفيهم قال عمرو ابن كلثوم ما قد ذكرنا فكان ذلك مدعاة لقول امرىء القيس.

* * *

وننشد قول امرىء القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه ... وأيقَنَ أنّا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له لا تبكِ عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموتَ فنُعذَرا[1]

والبيتان يشيران إلى أن الشاعر قد يئس من العرب كما ورد في الأخبار فتوجه إلى السموأل بن عادياء ليكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني بالشام ليوصله إلى قيصر ففعل، وإلى ذلك أشار البيتان.

وقصة كندة هذه تدور حول ملك قام بالجزيرة، ولكنه اتصل باليمن أول الأمر، وبالمناذرة والفرس إبان سطوته وقوته، وبالغساسنة والروم آخر أيامه، وكانت له مع القبائل ولا سيما بني أسد وقائع.

* * *

وجاء في «السيرة» قول رزاح بن كلاب ينصر أخاه قصيّاً على خزاعة لينتزع منها ولاية الكعبة:

---

(١) الديوان (ط. دار المعارف)

لما أتـــــاني عن قُصَيٍّ رســــولُ فقـال الـرسـول: أجيبـا الخليـلا
نهضنـــا إليـــه نقـــود الجيـــاد ونطـــرح عنـــا الملـــول الثقيـــلا
فهُـنّ سراع كـــــورد القطـــــا يُجبن بنـــا مـن قُصَيٍّ رســـولا
فلما أتينـــــــا إلى مكــــــة أبحنـــا الـــرجـال قبيـلاً قبيـــلا
قتلنـــا خـــزاعـــة في دارهـــا وبكـراً قتلنـــاه جيـــلاً فجيـــلا(١)

* * *

ويقول الزبير بن عبد المطلب في حلف الفضول:

حلفــتُ لنعقِـــــدَنْ حلفـــــاً وإن كنـــا جميعـــاً أهـل دارِ
نسمّيـــه الفضـــولَ إذا عَقَـــدْنـــا يُعَـــزّ بـــه الغـــريب لـــدى الجوار
ويعلم مـن حَـــوالي البيت أنّـــا أبـــاة الضيم نهجـــرُ كل عـــار(٢)

و«حلف الفضول» عمدت إليه قريش بعدما تعبت من حروب «الفجار» التي دفعت إليها غير راغبة فيها، وقال بعضهم بعد منصرفه من «الفجار»:

نحن كنـــا الملـــوكَ من آل نجـــدٍ وحماة الـــذمـــار عنـــد الـــذمـــار
وَمَنعنـــا الحجـــون من كـل حيٍّ ومنعنـا الفجـــار يـوم الفجـــار(٣)

وكأن الشعراء باشروا في عهود الإسلام ما كان لصيقاً بالجاهلية من حيث المفاخرة والمنافرة والانحياز لقبائلهم ومجاميعهم، فهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول، يظهر الشعور بالتفوق والسيادة في شعره وهو في الإسلام، قال:

وكنـــا ملـوك النـــاس قبل محمـــدٍ فلما أتى الإسـلام كـــان لنـــا الفضلُ
أولئك قـــومي خير قـــوم بـأسرهم فما عُـدّ من خير فقـــومي لـــه أهل(٤)

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٢٣
(٢) مروج الذهب ٢/ ١٦٨
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٦٧
(٤) الديوان ص ٢٨٤

وليس هذا بعيداً عن طريقته في شعره وهو في الجاهلية، كقوله في قصيدة مدح بها عمرو بن الحارث الغساني:

ولقد تقلّدنا العشيرة أمرَها ... ونسود يوم النائبات ونعتلي
ويسود سيدَنا جحاجحَ سادةً ... ويُصيب قائلنا سواء المفصل
ونحاول الأمرَ المهم خَطابه ... فيهم ونفصل كل أمر مُعضل
وتزور أبواب الملوك ركابنا ... ومتى نُحَكَّم في البرية نعدِلِ[1]

ومثل هذا كثير في شعره في الجاهلية فمنه قوله:

لنا حاضر فَعْمٌ وبادٍ كأنّه ... شماريخ رضوَى عزّةً وتكرُّما
متى ما تَزِنّا من مَعَدٍّ بعصبةٍ ... وغسّانَ نمنَعْ حوضنا أن يُهدَّما
وُلِدنا بني العنقاء وابنَيْ مُحَرِّقٍ ... فأكرِمْ بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابنما[2]

* * *

وفي الحقبة المتقدمة من تاريخ الإسلام كان للشعراء مكان في وقائع المسلمين مع المشركين، وكان لحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مواقف للدفاع عن الإسلام والرسول الكريم، فكانوا إذا رثوا قتلى المسلمين، انبرى لهم شعراء قريش ينقضون عليهم ما ذهبوا إليه، وكان يقابل الشعراء المسلمين، وهم ثلاثة من الأنصار، ثلاثة شعراء من قريش وهم عبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص[3].

وأنت تجد الخصومة بين القبائل بقيت هي نفسها في العصور الإسلامية كما كانت في عصور ما قبل الإسلام، فالشاعر المسلم، وهو من قريش، يكتفي في هجائه لقريش بذكر هزيمتهم فهذا ضرار بن الخطاب يقول:

---

(١) الديوان ٢٦٨

(٢) الديوان ٤٢٦

(٣) الأغاني (ط. دار الثقافة) ٤/١٣٨ ـ ١٧٤.

فإن تظفــروا في يــــوم بــدرٍ فإنما بأحمدَ أمسى جـدكـم وهـو ظـاهـر
وبـــالنفــر الأخيـــار هم أوليـــاؤه يُحامـون في اللأواء والموت حـاضر
يُعَــــدُّ أبـــو بكـــر وحمزة فيهم ويدعى عليٌّ وَسْطَ مَـن أنت ذاكر[1]

وضرار هذا غير كعب بن مـالك الأنصاري الذي يهجو قريشـاً فيشمت بما نالهم من القتل والهزيمة، مذكراً إيـاهم بمصيرهم إلى النار، ولا يقتصر على ذكر هزيمتهم كما فعل ضرار[2].

ويمدح الـرسولَ طـالب بن أبي طالب ويـذكر الحرب في بدر ويكتفي بـذكر هـزيمة قريش ويأسى على قتلاهم، ويتمنى لـو أن الجميع اتفقوا مكيّهم ومدنيّهم على الأنصار، وهذا ما كان يوجـه إلى الهاشميين من نقد من كونهم لا يهمهم إلا النبي فهم يخشون أن يناله ما ينال الآخرين من القتل[3]، وفي هذا يقول طالب:

فيـــا أخَـوَينـــا عبـدَ شمس ونـوفـــلا فـدىً لكما لا تبعثـوا بيننـا حَـربـــا
ولا تصبحـــــوا مـن بعـــد ودٍّ وألفـــةٍ احـــاديث فيهـــا كلُّكـم يشتكي النكبـــا
فما إن جنينـــــا في قـــريـش عظيمــــةً سـوى أن حمينـا خير من وطىء التربـا
فـــــواللـــــه لا تنفك نفسي حـــزينــــةً تَمَلْمَلُ حتى تصدقـوا الخزرج الضربا[4]

* * *

ونقـرأ قول أبي سفيـان بن حـرب وقـد مـر ببيت علي بن أبي طالـب، وكان النـاس يبايعون أبا بكر، وقد ازدحم الناس على البيعة، فوقف عليه وأنشد:

بني هــاشم لا تطمعوا النــاس فيكُمُ ولا سيما تيم بـن مــرَّة أو عـــديّ
فما الأمـــــــــر إلا فيكُـمُ وإليكُـمُ وليـس لها إلا أبـــــو حَسَنٍ عليّ
أبـا حَسَنٍ فـاشـــدد بها كفَ حـازمٍ فإنك بـــالأمـــر الـذي يـــرتجى مليّ

(١) السيرة ٣/ ١٤
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥
(٣) الأغاني ٤/ ١٨٢
(٤) السيرة ٣/ ٢٧

فقال علي ــ رضي الله عنه ــ لأبي سفيان: إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه، وكذلك رفض العباس بن عبد المطلب[1]، وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب يدعو لعلي وينتصر له:

ما كنتُ أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أولَ من صلى لقبلتكم ... وأعلم الناس بالقرآن والسُنَن[2]

ولما تم الأمر لأبي بكر، قال أبو عبرة القرشي:

شكراً لمن هو بالثناء حقيق ... ذهب اللجاج وبويع الصدّيق
من بعد ما زلّت بسعدٍ نعله ... ورجا رجاءً دونه العيّوق

إلى أن يقول:

إن الخلافة في قريش مالكم ... فيها وربِّ محمدٍ معروق[3]

* * *

وكان من ذلك أن تحرك الأنصار فذكروا المشاهد التي حضروها في نصرة الإسلام على قريش، فقال حسان:

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف ... حروف الليالي والبلاء على رَجُلْ
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا ... كقسمة أيسار الجزور من الفضل

إلى أن يقول:

فكان جزاء الفضل منّا عليهم ... جهالتهم حمقاً وما ذاك بالبَدَلْ

فغضبت قريش، وصار الشعراء يردّون على الأنصار شعرهم[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦/ ٧
(٢) المصدر السابق ٦/ ٨
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق ٦/ ١٠

وطال اللجاج بين قريش والأنصار، حتى إن عمرو بن العاص قدم من سفره، وسمع حديث السقيفة فقال:

ألا قل لأوسٍ إذا جئتها ... وقُلتَ إذا جئت للخزرج
تمنّيتُمُ الملك في يثرب ... فانزلت القدر لم تنضج

فرد عليه مالك بن العجلان، شاعر الأنصار، فقال:

فقل لقريشٍ نحن أصحاب مكّةٍ ... ويومَ حُنَينٍ والفوارس في بَدر
... ...[1]

* * *

واجتمعت أسد وغطفان وطيّء على طليحة الأسدي، وقدموا إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يحُطّ عنهم الزكاة فأبى، فقال الحطيئة في قصيدة له:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلاّ رددتم وفدنا بزمانه ... وهلاّ خشيتم حَيَّ راغية البكر
وإن التي سألوكُمُ فمنعتُمُ ... لكالتمر أو أحلى إليَّ من التمر

والشاعر ينكر في شعره ما جاء به الإسلام، وهو يشير إلى الوراثة في الحكم وإلى ما يمكن أن يؤدي ذلك إليه من الثورة[2].

* * *

وقال أبو شجرة بن عبد العزّى، وهو ابن الخنساء، حين ارتد عن الإسلام:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦/ ١٢

(٢) تاريخ الرسل والملوك (ط أوروبا) ١/ ١٨٧٤، وفيه أيضاً أن القائل هو الخليل أخو الحطيئة.

سل النـــاس عنّـا كل يـــوم كـريهةٍ إذا مـــا التقينـــا دارعين وحُسَّـــرا
ألسنـا نعـــاطي ذا الطماح لجاجـه ونطعُن في الهيجـــا إذا الموت اقفـرا
وعـارضـةٍ شهبـاء تخطـر بـالقنـا تَـرَى البُلقَ في حـافـاتها والسَّنَـوَرا
فـروّيـتُ رمحي من كتيبـة خـــالـدٍ وإني لأرجـو بعـدهـــا أن أُعمَّـرا[1]

***

وقال القعقاع بن عمرو في أيّام الحيرة زمن أبي بكر:

سقى اللـــه قتلى بـــالفـــرات مقيمـــةً وأخـرى بـأثبـاج النجـاف الكـــوانف
فنحن وطئنـــا بـــالكـواظـم هـرمـــزاً وبـــالثني قـــرني قـارن بـــالجوارف
ويـوم أحطنـــا بـالقصـور تتـــابعت على حبرة الروحاء إحـدى المصارف[2]

***

وسار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من قتال المرتدّين نحو الشام، فمرّ بطريقه، وهو مفوّز، مـن قراقر إلى سـوى فأغار على أهلـه، وهم من بهراء، قبيل الصبح، وكـان ناس منهم يشربون الخمر في جفنة اجتمعوا عليها ومغنيهم ينشد:

ألا علّـــلاني قبل جيش أبي بكـــر لعلّ منـايـانـا قـريب ومـا نـدري
ألا علّـــلاني بـــالـزجـــاج وكـــرِّرا عليّ كميت اللـون صـــافيـةً تجري
أظنّ خيـــول المسلمين، وخـــالـــداً ستطـرقكم قبـل الصبـاح من البِشْر

فقتل مغنيهم تحت الغارة وسال دمه في تلك الجفنة[3].

***

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/١٩٠٥

(٢) المصدر السابق ٥/٢٠٤٦

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/٢٤٠٦

كان الوليد بن عقبة والياً على الكوفـة في عهد عثمان بن عفان، وكان يشرب مع ندمائه ومغنّيه حتى الصباح، وقد صلى بالنـاس الصبح أربعة وأفسد الصلاة، وقد دخل قصره يترنح ثملاً ينشد أبياتاً لتابّط شراً:

ولست بعيـداً عـن مـدام وقينـةٍ ... ولا بصَفـاً صلـدٍ عن الخير معـزل
ولكنني أروي من الخمـر هـامتي ... وأمشي الملا بـالسـاحب المتسلل

وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهـد الحطيئـة يـومَ يلقَى ربّـه ... أن السـوليـد أحـقُّ بـالعـذر
نـادى وقـد تمّت صـلاتُهم ... أأزيـدكم؟ ثمـلاً ومـا يـدري
ليـزيـدَهم أخـرى ولـو قبلـوا ... لقـرنت بين الشفـع والـوتـر
حبسـوا عنـانك في الصـلاة ولـو ... خلّـوا عنـانك لم تـزل تجري

وقـد بدا مـن عثمان شك في شهادة الشهـود عليـه فلجأوا إلى عليّ، فحمل عثمان على إقامة الحدّ عليه[1].

* * *

وقتل عثمان بن عفان فرثاه حسان بن ثابت، وكان عثماني الرأي فقال:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ... مـا كـان شأن عليٍّ وابن عفّـانـا
لنسمعَنَّ وشيكـاً في ديـارهمُ: ... اللـه أكبر يـا ثـارات عثمانـا

* * *

وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخـا عثمان لأمه، فسمع في الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه ويقول:

بني هـاشمٍ إيـهٍ فما كـان بيننـا ... وسيف ابن أروى عندكم وحـرائبُهْ
بني هـاشم ردّوا سـلاح ابن أختكم ... ولا تنهبـوه، مـا تحلّ منـاهبُـهْ
غـدرتم بـه كيما تكـونـوا مكـانـه ... كما غـدرت يـوماً بكسرى مـرازبُـهْ

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٢٤ (نشرة محيي الدين عبد الحميد)

فأجاب الفضل بن العباس بن أبي لهب عن الشعر وردّ على الوليد ما رَمَى به بني هاشم فقال:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم — أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أُختنا — فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان وليَّ العهد بعد محمدٍ — عليّ وفي كل المواطن صاحبه[1]

* * *

وجاء في «تاريخ الطبري»[2]:

«... كانت العرب توقع وقعة العرب وأهل فارس في القادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين، وفيما بين الأبلّة وأيلة، يرون أن ثبات ملكهم وزوالهم بها، وكانت ا لآذان في كل بلد مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها، حتى كان الرجل ليريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية، فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت به ناساً من الإنس، فسبقت أخبار الإنس إليهم، قالوا فبدرت امرأة ليلاً على جبل بصنعاء لا يُدرى ممن هي، وهي تقول:

فحيِّيت عنا عكرمُ ابنة خالدٍ — وما خير زادٍ بالقليل المصرّدِ
وحيتكِ عنّي الشمس حين طلوعها — وحيّاكِ عني كلّ ناجٍ مُفرَّد
وحيّتكِ عنّي عصبة نخمية — حسان الوجوه آمنوا بمحمّد
أقاموا لكسرى يضربون جنوده — بكل رقيق الشفرتين مهنّد

وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغني:

وجدنا الأكثرين بني تميم — غداة الروعِ أصبرهم قتالا
هُمُ ساروا بأرعنَ مكفهرّ — إلى لَجِبٍ فزرتُهُمُ رِعالا
بحورٍ للأكاسر من رجالٍ — كأُسد الغاب تحسبهم جبالا
تركنَ لهم بقادسَ عزّ فخرٍ — وبالخيفين أيّاماً طوالا
مقطعةٌ أكفُّهم وسوقٌ — بمردى حيث قابلت الرجالا

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٣٤

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج٢، ق٢، ص٢٣٦٤

وسمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب.

* * *

وقال عروة بن زيد الخيل في فتح الحيرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان القائد المثنى ابن حارثة الشيباني، وقد هزم مهران، وقتل في هزيمة الفرس إلى المدائن:

هاجت لعروة دار الحيّ أحزانا ... واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى عند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم ... فقتّل القوم من رَجْلٍ وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته ... حتى أبادهم مثنىً ووحدانا
... ...
... ...[1]

* * *

وجاء في «الأخبار الطوال»[2] أيضاً مقطوعات لبشر بن أبي ربيعة، وعروة بن زيد الخيل[3]، وقيس بن زهير، فخر فيها الشعراء بما كان في القادسية، وما كان في حرب المسلمين مع الروم، ومن ذلك قول قيس بن زهير:

جلبتُ الخيل من صنعاء تردي ... بكل مدجّجٍ كالليث حامي
إلى وادي القرى فديار كلبٍ ... إلى اليرموك والبلد الشآمي
فلما أن زوينا الروم عنها ... عطفناها ضوامر كالجُلام
فأبنا القادسية بعد شهرٍ ... مسومة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جموعَ كسرى ... وأبناء المرازبة العظام

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ص١١٥، وقد نسبت الأبيات في تاريخ الطبري ج٢ ق٢ ص٢٢٠٠ إلى الأعور الشني.

(٢) الأخبار الطوال ص١٢٥

(٣) والذي ورد في الأخبار الطوال غلطاً هو: عروة بن الورد

وقال عروة بن زيد الخيل:

صبرتُ لأهـل القـادسيـة معلِماً ... ومثلي إذا لم يصبر القِـرْن يصبرُ
فطاعنتهم بالرمح حتى تبدّدوا ... وضاربتهم بالسيف حتى تكرّكروا
حمدت إلٰهي إذ هداني لدينه ... فللّه أسعى ما حييت وأشكرُ

وقال بشر بن أبي ربيعة:

ألَمَّ خيال من أميمة موهنا ... وقد جعلت إحدى النجوم تغور

إلى أن يقول:

وجُلت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقّاصٍ عليّ أمير
عشية ودّ القوم لو أنّ بعضهم ... يُعار جناحي طائر فيطير
إذا برزت منهم إلينا كتيبة ... أتينا بأخرى كالجبال تمور

* * *

ومما أورده الطبري في حروب المسلمين مع الروم قول زياد بن حنظلة في عهد عمر ابن الخطاب:

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن في عامٍ كثير نَزائله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهرٍ بينهن بلابلُه
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوله قَرم هناك يساجله[1]

* * *

وكان الأحنف بن قيس قد بعث الأقرع بن حابس إلى الجوزجان سنة ٣٢هـ فسار في جريدة خيل إلى بقية بقيت من الزحوف الذين هزمهم، فقاتلهم الأقرع، وجال المسلمون جولةً، فقُتل فارسان من فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم، فقال

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج٢ ق٢ ص٢٤١٠، وفيه أمثلة أخرى في الصفحات: ٢٤١١، ٢٥٠٨، ٢٢٦٥، ٢٦٥٢، ٢٧٠٨، وكلها في عهد عمر.

كثير النهشلي:

سَقَى مُـزنُ السحـاب إذا استهلّت ... مصـارع فتيـة بـالجوزجـانِ
إلى القصرين مـن رستـاق خـوطٍ ... أفـادَهُمُ هنـاك الأقـرعـانِ

والقصيدة طويلة[1].

***

وكـان للرجـز مكان كـالشعر في وقـائعهم، فلما قتل عثمان بن عفان بـايع كثير من الناس عليـاً، وتخلّف بنو أميـة وآخرون منهم حسان بن ثـابت ومسلمة بن مخلـد وأبو سعيـد الخدري، ولما تمت البيعـة لعلي وخطب خطبتـه، وأراد الـذهـاب إلى بيتـه قـالت السبئيّة:

خـذهـا إليكَ واحـذَرَنْ أبـا حَسَن ... إنـا نُمِـرّ الأمـر إمـرارَ الـرَسَنْ
صـولـة أقـوامٍ كأسـداد السُقُن ... بمشرفيّـات كغُـدران اللبنْ
ونطعـن الملك بلينٍ كـالشَطَنْ ... حتـى يمُـرَنّ على غير عَنَنْ[2]

والسبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين خبّوا في الفتنة الأولى على عثمان وحرّضوا عليه في الأمصار، وتـردد زعيمهم بين البصرة والكوفة ومصر، وبث الـدعوة لعلي، وصي النبي، وأولى الناس بالخلافة.

وضربت الركبـان إلى الشام بنعي عثمان وتحريض معـاوية على الطلب بدمـه، فبينا معاويـة ذات يوم جالس إذ دخل عليـه رجل فقال: السلام عليك يـا أمير المؤمنين، فقال معاويـة: وعليك، من أنتَ لله أبوك، فقـد روّعتني بتسليمك عليّ بالخلافـة قبل أن أنالها، فقال: أنا الحجاج بن خُزيمة بن الصِمَّة، قال: ففيم قدمت؟ قال: قدمت قاصداً إليك بنعي عثمان، ثم أنشأ يقول:

إنّ بنـي عمّـك عبـد المطّلـبْ ... هم قتلـوا شيخكـم غير الكـذب
وأنت أولى النـاس بـالـوثب فثِبْ ... وسِرْ مسير المحـذئلّ المُتلَـئبْ

(١) الطبري ج٢ ق٢ ص٢٩٠٢

(٢) المصدر السابق ص٣٠٧٩

ثم قال له: وإنك تقوى بدون ما يقوى به عليّ، فإن معك قوماً لا يقولون إذا سكتّ، ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت. ومع عليّ قوم يقولون إذا قال، ويسألون إذا سكت، فقليلك خير من كثيره، وعليٌّ لا يرضيه إلا سُخطك، ولا يرضى بالعراق دون الشام، وأنت ترضى بالشام دون العراق، فضاق معاوية بما أتاه الحجاج بن خزيمة ذرعاً فقال:

أتاني أمرٌ فيه للناس غُمّة ... وفيه بكاء للعيون طويلُ
مصاب أمير المؤمنين وهذه ... تكاد له صُمُّ الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصبة ... فريقان منهم قائل وخَذول
سألقحها حَرباً عواناً مُلحّة ... وإني بها من عامنا لكفيلُ[1]

***

وتحوّلت عائشة إلى بني أمية، وإذ هي في طريقها إليهم، لقيها عند «سَرَف» عبد بن أم كلاب وهو عبد أبي سلمة، وحاورها في مقتل عثمان وخلافة علي، فقالت: قُتِلَ والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه، فقال لها: وَلِمَ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، فقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، فقال لها ابن أم كلاب:

منكِ البَداء ومنكِ الغِيَرْ ... ومنكِ الرياح ومنكِ المَطَرْ
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام ... وقلتِ لنا إنّه قد كَفَرْ[2]
... ...

وقد أقبل جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أمّ المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، ثم خرج غلام شابّ من بني سعد فلام طلحة والزبير على إخراجهما عائشة دون نسائهما، ثم اعتزل وقال:

---

(١) الأخبار الطوال ص١٥٦

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج د ق ٢ ص٣١١٢، ومروج الذهب ٢/٢٤٦ وفيه أن الأبيات قد نسبت إلى عمار بن ياسر

صُنتُم حـــلائلكم وَقـــدَمتُـم أمَّكم ... هـــذا لعمـــرك قلَّـــةُ الإنصـــاف
أمِـــرت بجـــرّ ذيـــولها في بيتهـــا ... فهَـــوَت تَشقُّ البيـــد بـــالإيجاف
... ...[1]

* * *

واحتـــاج معاويـــة إلى عمرو بن العـــاص، فشرط عليه أن تكـــون له مصر، فتلكأ عليـــه معاويـــة، فقال لـــه عتبة بن أبي سفيـــان: أما ترى أن تشـــتري عمـــراً بمصر، إن صفت لك قليتك لا تغلب على الشام، وقـــال معاوية لعتبـــة: بت عندنـــا ليلتك هذه، فبات عتبـــة عنده وأنشد:

أيها المانـــع سيفـــــــــــــاً لم يُهزْ ... إنما مِلْـتَ على خَـــــزّ وقَـــــــزْ
إن مصراً لعليٍّ أو لنـــــــــــــــا ... يُغلَب اليـــوم عليهـــا من عَجَـــزْ
... ...

فلما كـــان الصباح بعث معـــاوية إلى عمـــرو، وأعطـــاه ما سأل، وبعـــد ذلك بفترة كتب معـــاويـــة إلى عمرو بن العـــاص، وهـــو على مصر قـــد قبضـــها بـــالشرط الـــذي اشترط على معاوية:

«أما بعـــد، فإنّ سؤال أهـــل الحجاز وزوّار أهل العـــراق قد أكثروا عليّ، وليـــس عندي فضل من أعطيات الجنود فأعِنّي بخراج مصر هذه السنة، فكتب إليه عمرو:

معـــاويَ إن تُـــدركك نفس شحيحـــةٌ ... فما وَرَّثْتنـــــي مصرَ أمّـــــي ولا أبي
ومـــا نلتُهـــا عفـــواً ولكـــن شرطتهـــا ... وقد دارت الحربُ العَـــوانُ على قُطبِ
ولـــولا دفـــاعي الأشعـــريَّ وصحبَـــه ... لألفيتهـــا تـــرغـــو كـــراغيـــة السَّقْبِ

فلما رجع الجواب إلى معاوية، تذمّم فلم يعاوده في شيء من أمرها[2].

* * *

---

(١) الطبري ص٢١٢١

(٢) الأخبار الطوال ص ١٢٤

وقد وقفت العراق مع عليّ، والشام مع معاوية، وكان معاوية مكيناً في الشام بخلاف عليّ في العراق، وكان معاوية قد أبى أن يبايع علياً وكتب إليه بابيات كعب بن جُعيل:

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق له كارهونا
وكلٌّ لصاحبه مُبغضٌ ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا: عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابنَ هندٍ رضينا

فلما قرأ عليٌّ ذلك، قال للنجاشي: أجب فقال:

دَعَنْ معاوي ما لن يكونا ... فقد حقّق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العرا ... قِ وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القوم ملك العراق ... فقدماً رضينا الذي تكرهونا
... ...[1]

ولما هم معاوية بالخروج إلى صفين سنة ٣٦هـ وعلم الوليد بن عقبة بخوف معاوية من علي بعث إليه بقوله:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ ... فإنك من أخي ثقةٍ مُليمُ
قطعت الدهرَ كالسدم المُعنّى ... تهدَّرَ في دمشقَ فما تريمُ
وليس أخو التِّرات بمن توانى ... ولكن طالب التِّرَةِ الغشومُ
ولو كنت القتيل وكان حَيّاً ... لجرَّد، لاأَلَفُ ولا سَئُومُ
ولا نكَلٍ عن الأوتار حتى ... يبيء بها ولا برمٍ جثومِ
وقومك بالمدينة قد أُبيروا ... فهم صرعى كأنهمُ الهشيمُ[2]

* * *

وكانت ربيعة في «صفين» مع عليّ تتبارى في نصرته بزعامة الحصين بن المنذر بن الحارث الذهلي، فقال في ذلك علي:

---

(١) الأخبار الطوال ص١٦

(٢) الطبري ص٣٢٥٧

لمن رايــةٌ ســوداءُ يخفــق ظلهــا إذا قيــل قـدِّمْهــا حُضَينُ تقـدَّمــا
يقـدّمهـا في الموت حتــى يــزيـرهـا حياض المنـايا تقطـر الموت والدمـا
أذقنـا ابـن حرب طعننـا وضرابنـا بـأسيــافنـا حتــى تـولىّ وأحجما
... ...[1]

* * *

وقد يقال: إنه كان على عليّ أن يأخذ برأي المغيرة بن شعبة، وإبقاء معاوية على الشام حتى تلزمه طاعة عليّ، فإذا استقرت الأمور رأى فيـه رأيه، ولكن علياً أبى أن يأخذ برأي المغيرة، فقال المغيرة:

نصحـتُ عليـاً في ابـن هنـدٍ مقـالـة فردت فـلا يسمع لها الـدهر ثـانيهْ
وقلــت لـه: أرســلْ إليــه بعهــده على الشـام حتـى يستقر معـاويـهْ
ويـعلـم أهـل الشــام أن قـد ملكتَـه وأمُّ ابـن هنـدٍ بعـد ذلـك هـاويـهْ
فلـم يقبل النصـح الـذي جئته بـه وكانـت له تلك النصيحة كـافيهْ[2]

وقال عمرو بن العاص:

معــاوي لا أعطيـك دينــي ولم انــل به منـك دنيا فانظرنْ كيـف تصنع
فـإن تعطنــي مصراً فأربَـحْ صفقـةٍ اخـذتَ بها شيخــاً يضرُّ وينفـع[3]

* * *

واستمر القتـال في صبح ليلة لقـاء جيش علي وجيش معـاوية، وكاد الأمـر يتم لعلي، ونادت مشيخـة أهل الشــام: الله اللـه في الحرمات والنســاء والبنات، فقــال عمرو بــن العاص:

---

(١) الطبري ٢٣٣١٦ ومروج الذهب ٢/ ٢٧٠

(٢) مروج الذهب ٢/ ٢٥٦

(٣) مروج الذهب ٢/ ٢٤٠

«أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه في رمحه، فكثر في الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، ومن لجهاد الروم؟ ومن للكفّار؟ ورفع عسكر معاوية نحواً من خمسمئة مصحف، وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قُران
ونادَوا علياً يا ابن عمّ محمد ... أما تتقي أن يهلك الثقلان

حتى خدع بذلك أهل العراق، وتركوا القتال على الرغم من عليّ، وبعد ما كثر القتلى، وبرم الناس من هذه البلايا، وسمعت امرأة بصفين، وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهي تقول:

أعينيّ جودا بدمعٍ سَرِبْ ... على فتيةٍ من خيار العربْ
وما ضرّهم غيرُ حَيْن النفوس ... بأيّ أميرَي قريش غَلَبْ[1]

* * *

ثم كانت مسألة «التحكيم» المشهورة.

وقد سخط أهل العراق على أبي موسى الأشعري، وندموا على ما كان من اختيارهم له ليكون خصيماً لعمرو بن العاص، وقال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي، وهو من أهل الشام، وكان قد اعتزل قومه:

لو كان للقوم رأيٌ يهتدون به ... عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخٍ من ذوي يَمَنٍ ... لم يدر ما ضربُ أخماس لأسداس[2]

* * *

وكان عليّ شديداً في الرأي والحكم وإقامة الحدود، سأله أخوه عقيل شيئاً من بيت

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٧١، ٢٧٥

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٩ والأخبار الطوال ص١٩٦، وفي «المروج» ٢/ ٢٧٨ شعر لابن عباس لام فيه أبا موسى الأشعري، وشعر في تأييد عليّ.

المال فأبى عليه ذلك، فهرب إلى معاوية فأكرمه، وكذلك كان شأنه مع ولديه الحسن والحسين. وكان عبد الله بن عباس عامله على البصرة يهتدي بهديه، فقد وفد عليه عُيبة ابن مرداس التميمي يسأله عطاءً، وكان ابن مرداس هذا هجّاءً خبيث اللسان، فردّه ابن عباس وحبسه وهدده بقطع لسانه إن هجا أحداً، ثم أخرجه عن البصرة فذهب إلى المدينة بعد مقتل علي، فلقي الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما، فاشتريا عرضه بما أرضاه، فقال يمدحهما ويلوم ابن عباس:

أتيتُ ابنَ عباسٍ فلم يقض حاجتي ... ولم يرج معروفي ولم يخشَ منكري
حُبست فلم انطق بعذرٍ لحاجةٍ ... وسدّ خصاص البيت من كل منظر
... ...[1]

* * *

وخطب حيان بن ظبيان من رؤساء الخوارج أصحابه فحثهم على الجهاد وقتال الظالمين فقال:

خليليّ ما بي من عزاءٍ ولا صبر ... ولا إربةٍ بعد المصابين بالنهر
سوى نهضاتٍ في كتائب جمّةٍ ... إلى الله ما تدعو وفي الله ما تفري
... ...[2]

* * *

وقد همّ الخوارج بالخروج سنة ٣٤هـ، والمغيرة بن شعبة والٍ على الكوفة من قبل معاوية، فأنذرهم، وحذر القبائل أن يحموهم، وقد نزلوا إحدى دور بني عبد القيس فكره صعصعة بن صوحان مقامهم في عشيرته، فلما علم بذلك المستورد بن عُلّفة، وهو من رؤساء الخوارج عزم على ترك الكوفة بمن معه منهم، فقال في ذلك معاذ بن جوين الخارجي:

---

(١) الأغاني (ط بولاق) ١٩/ ١٤٤. والقصيدة طويلة.

(٢) الطبري ج٢ ق١ ص١٩

ألا أيّها الشـارون قد حـان لامـرئ شَرَى نفســـه للّـــه ان يترحَّـــلا
أقمتم بـــدار الخاطئين جهـــالــةً وكل امـــرئ منكم يُصـاد ليُقتـــلا
فشـــدّوا على القـــوم العـــداة فإنما إقـــامتكم للـــذبـح رأيـــاً مضلّـــلا
... ...[1]

***

ولكن المغيرة قد بعث في قتالهم حتى هدأت ثائرتهم بعـد ما دوخوا جيوش العراق، ثم قسا عليهم عبيد الله بن زياد، فقتل منهم جماعـة بينهم عروة بن أدية فخرج مرداس في أربعين رجـلاً، فأرسل إليهم ابن زيـاد ألفي رجـل عليهم ابن حصن التميمي، فهـزمهم الخوارج، وقال شاعرهم في ذلك:

ألفـــا مـــــؤمنٍ فيما زعمتـم ويهزمهم بـــآسكَ اربعـــونـــا[2]

على أن ابن زياد قـد أرسل جيشـاً آخـر فهزمهم وقتل أبا بـلال مرداسـاً، وذلك سنة ٦١هـ.

***

وقد كان معاوية سمحاً مع خصـومه، حليماً يعمل في أناةٍ ولين، وقد يصطنع الحيلة على عكس ما كان عليه ابنه يزيد مـن صرامة جاهلية. روى صاحب «الأغاني» في ترجمة النعمان بن بشير الأنصاري، قـال: شبّب عبد الـرحمن بن حسان بـرملة بنت معـاوية فقال:

رَمْلَ، هل تـذكـرين يـوم غـزالٍ إذ قطعنـــا مسيرنـــا بـــالتمنّي
إذ تقـولين عمـــرك اللـــه هل شيء وان جـلّ ســـــوف يسليك عنّـــى
طمعتَ يـــا ابـن حســـان في ذا ك كما قـــــد أراك أطمعـت منّـى

(١) الطبري ج٢ ق١ ص٢٦.

(٢) المصدر السابق، ج ق ١ ص ١٨٧.

فقال لـه معاوية: أين أنت من أختهـا هند؟ وأما يزيـد فقد غضب، وحمل الأخطل على هجاء الأنصار فقال:

وإذا نَسَبتَ ابنَ الفُـريحة خِلتَـه ... كـالجَحش بين حمارة وحمارِ

فشكاه النعمان بن بشير إلى معاوية وهدّد معاوية فترضاه[1].

* * *

واستتب الأمر لمعاوية بعد تنازل الحسن بن علي، فسلك سبيل اللين والشدة، فسعَى إلى أخذ البيعـة لابنه يـزيد وبذلك جعل الحكم في بني أميـة، وجعله «هـرقلية» كما قيل، وأشار إلى هذا عبد الرحمن بن أبي بكر، وقال فيه عبد الله بن همام السلولي:

فإنْ تـأتـوا بـرملـةَ أو بهنـدِ ... نبـايعهـا أميرة مـؤمنينـا
إذا مـا مـات كسرى قـام كسرى ... نعـدُّ ثـلاثـةً متنـاسقينـا[2]

* * *

وقد أثارت سيـاسة الأمويين سخط الموالي لأنها كانت عربية خالصـة، فانحازوا إلى اليمنية وسعوا إلى إسقاط الأمويين.

ومن هنـا قويت الأحـزاب فكـان بنـو هاشم (علـويين وعبـاسيين)، والزبيريـون، والخوارج، وكـان من نتـائج ذلك أن انحـاز الشعراء إلى هـذه الأحـزاب، وظهـرت الأسر وأخـذت مكانها في الحركـة السياسيـة، وكـان من ذلك أن ظهرت الخصـومات الأدبيـة تثيرها النزعات السياسية[3].

* * *

وقد حمل الحكم الأموي الشعراء على مناهضـة خصومهم، فقد قال الراعي النميري

---

(١) الأغاني (ط. دار الثقافة ببيروت) ١٥/ ٨١ ـ ٨٥.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٢٩.

(٣) وفي تاريخ الطبري، ومـروج الذهب، والأخبار الطـوال فوائد في هذا الباب أشرنـا إلى شيء منها، وإذا جئنا إلى كتاب «الكـامل» للمبرد وهو كتاب أدب ولغة، وجـدناه حافلاً بـأخبار الخوارج، انظر الجزء الثاني (ط زكي مبارك ومحمود محمد شاكر).

يخاطب عبد الملك بن مروان متبرئاً م . ابن الزبير والخوارج النجدات:

إني حلفـــتُ على يمينِ بَـــرّةٍ ... لا أكـذب اليـومَ الخليفـةَ قيـلا
مـا إنْ أتيـت أبـا خبيـبٍ وافـداً ... يـومـاً أريـد لبيعتـي تبـديـلا
ولا أتيـت نُجيـدة بـن عـويمـرٍ ... أبغـي الهدى فيزيـدني تضليـلا(١)

* * *

وكان زياد بن أبيه شديداً على الخوارج إبان ولايته للعراق، وكذلك كان ابنه عبيد الله، فقد قتل هـذا عروة بن أديّة، من زعماء الخوارج، وقـد غضب أخوه لقتله وهـو أبو بلال مرداس بن أديـة، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً مـن الخوارج، فأرسل إليهم ابـن زياد الفين برياسة ابن حصن التميمي، فهزمته الخوارج، فقال في ذلك عيسى بن فاتك الحبطي:

أألفـــا مـــؤمـــنٍ فيما زعمتُـــم ... ويهزمُهـــم بـــآســـكَ أربعـــونـــا
كـــذبتـــم ليـــس ذاك كما زعمتـــم ... ولكـــن الخوارج مـــؤمنـــونـــا
هـــم الفئـــة القليلـــة غير شـــكٍّ ... على الفئـــة الكثيرة يُنصرونـــا(٢)

* * *

ومـن أخبار الخوارج أن مـن شعـرائهـم عمران بـن حطـان الـذهلي.. من دعـاتهم ومقدّميهـم في المذهب، وكـان الحجاج قـد طلبه، فلحق بـالشام ونـزل بروح بـن زنباع الجذامي، وانتسب له أزدياً، فلما بدت حقيقته انصرف وترك لابن زنباع رقعة قال فيها:

يا رَوحُ كـم من أخي مثـوى نزلـت به ... قـد ظـنَّ ظنّـك مـن لخم وغسـان
حتـى إذا خفتـه فـارقـتُ منـزلـه ... مـن بعد مـا قيـل: عمـران بن حطـان
قـد كنـتُ ضيفـاً حـولاً لا تـروّعنـي ... فيـه الطـوارق مـن انـسٍ ومـن جـان
حتـى أردت بي العظمـى فـأوحشنـي ... ما أوحش الناس من خوف ابن مروان

ثم أتـى زفر بن الحارث الكلابي بقـرقيسياء، وانتسب لـه أوزاعياً، ولكن زفر عـرفه

---

(١) الكامل ٢/ ١٣٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦٢ وفيه أن القائد عبيد الله بن أسلم بن زرعة، والذي ورد في الطبري ما قدمناه وكنا قد اشرنا إليه.

وقال له: أزدي مرّة وأوزاعي أخرى؟ فتركه وهو يقول:

إن التي أصبحت يعيا بها زُفَر ... أعيَتْ عياءً على روح بن زنباع
ما زال يسألني حولاً لأخبره ... والناس ما بين مخدوعٍ وخدّاع
حتى إذا انجذَمَت مني حبائله ... كفّ السؤال ولم يولع بإهلاع
فاكفف كما كفّ رَوحٌ إنني رجل ... إمّا صميم وإما فِقعة القاعِ

وهكذا عاش مطارداً في سبيل مذهبه مدة ما، ينكر حقيقته خوف السلطان.

وقد كتب إلى الحجاج لما طلبه، وكان الحجاج قد عجز عن غزالة الحرورية فقال:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر
صدَعَت غزالةُ قلبه بفوارسٍ ... تركت مدابره كأمس الدابر[1]

* * *

ومن رؤساء الخوارج قطري بن الفجاءة وكان قد أمضى في رياسته عشرين سنة حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩هـ، وقال في يوم دولاب بين الخوارج وأهل البصرة:

لعمرك إني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتىً في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وظلّت شيوخ الأزد في حومة الوغى ... تعوم وظللنا في الجلاد نعوم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصا ... يمُجّ دماً من فائظٍ وكليم[2]

* * *

ولما قتل مصعب بن الزبير سنة ٧٠ للهجرة رثاه عبيد الله بن قيس الرقيات، وأشار

(١) الكامل للمبرد ٢/١٢١، ١٢٣، ١٢٤، والأغاني ٧/٣، ١٢/١١٤، ١٦/١٥٢ (ط بولاق).

(٢) معجم البلدان «دولاب».

إلى قعود مضر عن نصرته، وأدركت ربيعة ثأرها في قتله، فقال:

إنّ الـــرزيّـــة يـــوم مسكِن والمصيبـــة والفجيعـــهْ
بـــابـن الحواريّ الـــذي لم يعـــدُه أهل الـــوقيعـــهْ
غَـــدَرت بـــه مُضر العـــراق وأمكنت منـــه ربيعـــهْ
فأصبتِ وِتْـــرك يـــا «ربيع» وكنت ســـامعـــةً مطيعـــهْ[1]

ولما هرب الشاعر عقب مقتل مصعب آوته في الكوفة امرأة تدعى «كثيرة» وأكرمته نحواً من سنة، وقد ذكرها في شعره مادحاً كرمها وفضلها، وجعل منها مادة ديباجته السمحة، وقد اضطر إلى تركها لأنه خشي أنْ يعرف أمره وتوجه إلى المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر الهاشمي فأجاره، ثم توسل إلى أم البنين واستعان بها فأعانته، ومن هنا نقف على تحوّله إلى الأمويين فمدح عبد الملك قائلاً:

عـــادَ لـــه من كثيرة الطـــربُ فعينـــه بـــالـــدمـــوع تنسكب
مـــا نقمـــوا من بني أميّـــة إلا أنهم يحلُمـــون إن غضبـــوا
وأنّهم ســـادة الملـــوك فما تصلح إلا عليهم العـــرب
إن الأغـــرّ الـــذي أبـــوه أبـــو العـــاصي عليـــه الـــوقـــار والحجب
... ...
يعتـــدل التـــاج فـــوق مفـــرقـــه على جبينٍ كأنـــه الـــذهب[2]

* * *

وقد أعجب عبد الملك بن مروان بشعر أيمن بن خريم لصدق لهجته في شعره الذي أفصح به عن رأيه، وكان يتشيع، وقد قال في الهاشميين:

---

(١) الديوان ص١٨٤.

(٢) الديوان ص ١ ـ ٦.

نهارُكُم مكابدةٌ وصوم ... وليلكم صلاة وافتراءُ
وَليتم بالقران وبالتزكيَ ... فأسرعَ فيكم ذاك البلاء
بكى نجدٌ غداة غدٍ عليكم ... ومكّة والمدينة والجواء
وحقّ لكل أرضٍ فارقوها ... عليكم لا أبا لكمُ، البكاء
أأجعلكم واقواماً سواءً ... وبينكُمُ وبينهُمُ الهواء؟
وهم منكم لأرجُلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

وقد مدح الأمويين واتصل بعبد الملك، ودخل مصر مع نصيب على عبد العزيز بن مروان ومدحه، ثم تركه غاضباً إلى بشر بن مروان بالكوفة ومدحه معرضاً بعبد العزيز:

ركبت من المقطّم في جُمادى ... إلى بشر بن مروان البريدا
... ...

وكان عبد الملك قد قال له: خذ هذا المال وانطلق فقاتل ابن الزبير، فإن أباك كانت له صحبة فأبى وقال:

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يصلّي ... على سلطان آخر من قريش
له سلطانُه وعليَّ وِزري ... معاذ الله من سَفَهٍ وطيش
أأقتل مسلماً وأعيش حيّاً ... فليس بنافعي ما دمت عيشي

وكان أيمن هذا يفضّل الهاشميين على سواهم ويميل قلبه إليهم، وكان ينتفع من صلته بالأمويين[1].

* * *

وكان أبو العباس الأعمى أمويّ الهوى، ومن شعراء بني أمية المقدمين، وهو القائل في أبي الطفيل عامر بن واثلة من أصحاب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

لعمرك إنني وأبا طُفيل ... لمختلفان والله الشهيدُ
أرى عثمان مهديّاً ويابى ... متابعتي وآبى ما يريد

(١) الأغاني ٢١/ ١٠ (ط بولاق)، والشعر والشعراء (ط أوروبا) ص٢١٤.

وقال في مروان مادحاً:

ليتَ شعـــري أفـــاحَ رائحـــة المسك ومـــا إخــال بـــالخيف انسي
حين غـابت بنـو أميّـة عنـه والبهـاليل من بني عبـد شمس
خطبــاءٌ على المنـابــر فــرســان عليهــا وقــالــة غير خــرس
لا يُعـابــون صـامتين وإن قــالــوا أصـابــوا ولم يقــولــوا بلَبْس
بلحـــومٍ إذا الحلـــوم تقضّت ووجـــوهٍ مثل الـــدنـــانير مُلْس

وقد سمع المنصور منه هذا المديح أيام مروان، فلما آلت الخلافة إلى المنصور خرج حاجّاً، فلقي هذا الشاعر، فقال له: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المنصور، وأنا رفيقك وأنت تريد الشام أيّام مروان، فقال: أوه:

آمتْ نســـاء بني أميّـــة منهم وبنـــاتهم بمضيعـــةٍ أيتـــامُ
نـــامت جـــدودُهُـمُ وأسقِطَ نجمُهم والنجم يسقـط والجدود نيـــام
خلت المنـــابـــر والأسرة منهم فعليهـم حتى الممات ســـلام

ولم يقبل من المنصور عطاءً، لأن مروان أغناه أن يسأل أحداً بعده.

وقال يحض بني أمية على عبد الله بن الزبير:

أبنـي أميّـــة لا أرى لكـم شَبهـــاً إذا مـــا التفّـت الشّيَعُ
سعـــةً وأحـــلامـــاً إذا نَـــزَعت أهلُ الملـــوم فضرّهـــا النَـــزَع
اللـــه أعطـــاكم وإن رَغمـت من ذاك الـف معـــاشر رفعـــوا
أبنـي أميّـــة غير انكـمُ والنـــاس فيما أطمعـــوا طمعـــوا
أطمعتـمُ فيكـم عـــدوّكـم فسما بهم في ذاكُـــمُ الطمـــع

ولما غلب ابن الـزبير على مكة نفـاه إلى الطائف، فهجـا الـزبيريين، ورماهم بـالبخل واللؤم والتخلف عن قريشٍ في المفاخر. غير أنـه مع ذلك كان يميز بين هواه إلى بني أمية، وبين ما كان له من صداقة خاصة، فقـد كان صديقاً لمصعب بن الزبير، قال له عبد الملك

يوماً: أنشدني مديحك مصعباً فاستعفاه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما رثيته بذلك، وقد علمت أن هواي أمويّ، قال: صدقت، ولكن أنشدني ما قلت، فأنشده:

رحم الله مصعباً فلقد مات كريماً ورام أمراً جسيما

فقال عبد الملك: أجل، لقد مات كريماً[1].

* * *

وكان أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة الشيباني شديد التعصب لبني أمية، مرواني المذهب، وكان يسكن الكوفة، قال يمدح عبد الملك بن مروان:

وما أنا في أمري ولا في خصومتي بمهتضَم حقي، ولا قارع سِنّي
وفضّلني في الشعر واللبّ أنني أقول على علم وأعرف ما أعني
فأصبحت إذ فضلت مروان وابنه على الناس قد فَضَّلت خير أبٍ وابن

فأحسن له جائزته، وقد دخل على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لقتال ابن الزبير، فدفعه بكلام منثور، ثم أنشد:

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حُمِّلت ما لا تطيق فضيَّعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتُمُ إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قُفلاً مغلقاً وانهض بيمنك فافتتحْ أقفالها

فضحك عبد الملك وقال: صدقت يا أبا عبد الله، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير[2].

ومن الشعراء الذين انحازوا إلى الأمويين النابغة الشيباني، مدحهم ونال جوائزهم، قال يخاطب عبد الملك:

---

(١) الأغاني ١٥/ ٥٩ ـ ٦٣ (ط بولاق).

(٢) الأغاني (دار الكتب) ١١/ ٢٧١.

أرحــــت عنـــا آل الـــزبير ولـــو كــانـــوا هــم المالكين مـــا صلحـــوا
آل أبي العـــــاصي آل مــــأثـــرةٍ عــزّ عتـــاقٍ بــالخير قـــد نفحـــوا
خير قـــريـــشٍ وهـــم أفـــاضلهـــا في الجدّ جـــدٌ وإن هُـــمُ مَـــزَحـــوا(١)

وقال ليزيد بن عبد الملك بعد أن هزم يزيد بن المهلب:

فضضـــت كتـــائب الأزدي فضّـــاً بكبشـــــك حين لفهما اللقـــــاء
سمكـــت الملـــكَ مقتبـلاً جـــديـــداً كما سُمكـــــت على الأرض السماء
نــرجّـــي أن تكـــون لنـــا إمـــامـــاً وفي ملـــك الـــوليـــد لنـــا رجـــاء
هشـــام والـــوليـــد وكـــل نفـــسٍ تـــريـــد لـــك الفنـــاء لـــك الفـــداء

فاقصاه هشام لما ولي الخلافة(٢).

* * *

وكان لبني أمية سياسة خاصة في استرضاء أعدائهم وتألّفهم، ومن ذلك أن معاوية قد تألّف عمرو بن العاص إليه كما استلحق زياد بن أبيه، وعفا عن عبد الله بن هاشم ابن عتبة، من أصحاب عليّ يوم صفين، ولم يستمع في هذا إلى ما قاله عمرو بن العاص الذي استشهد بقول الشاعر:

وقـد ينبت المرعـى على دِمَن الثرى وتبقـى حـزازات النفـوس كما هيـا

ثم تناقض معاوية مع عبد الله هذا بشعر كان شناءة وبغضاً، ولكن معاوية قال:

أرى العفو عـن عليا قريـشٍ وسيلةً إلى اللـــه في يـــوم عصيـــبٍ قُماطِـــرِ
ولست أرى قتـل العداة ابـن هاشـم بـإدراك ثـأري في لـؤيّ بـن عـامـر
بل العفـو عنه بعـدما بـان جرمـه وزلت به إحـدى الجدود العـواثر(٣)

ومن شواهد العصبية أنه لما قتل الضحاك بن قيس الفهري من قيس عيلان في «مرج

(١) الديوان ص (و، ز).
(٢) الديوان ص (ح).
(٣) مروج الذهب ٢/ ٣١٢.

راهط» وقتل معه أشراف قيس، أقبل زفر بن الحارث هارباً من كلب ـ وكانوا مع مروان ابن الحكم على القيسية التي كانت مع ابن الزبير ـ حتى دخل قرقيسياء وتبعه عمير بن الحباب السلمي، وأقبل زفر يبكي قتلى المرج ويقول:

لعمري لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ ... لمروان صدعاً بيننا متنائيا
أريني سلاحي، لا أبالك، إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أبعد ابن عمرو وابن معنٍ تتابعاً ... ومقتل همّام أمنّى الأمانيا
وتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهطٍ هي ما هيا
فلم تُسرَ مني نبوة قبل هذه ... فراري وتركي صاحبيّ ورائيا
أيذهب يوم واحد إن أسأتُه ... بصالح أيامي، وحُسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحطّ الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقال ابن المخلاة يجيبه:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... على زُفَرٍ من الداء باقيا
تُبكّي على قتلى سليمٍ وعامرٍ ... وذبيان مغروراً وتبكي البواكيا[1]

هذه طائفة من «وقفاتي» التي أفدتها من قراءاتي في كتب الأدب والتاريخ، وهي شيء ستتبعه مادة أخرى.

---

(١) الأغاني (ط بولاق) ١٧/١١٧، تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ق١ ص٤٨٢.